« اليقظة » الكويتية ٣٠ أيار ١٩٨٠

جاد الحاج في "٢٦ قصيدة": شاعر يبيع المساء للعابرين

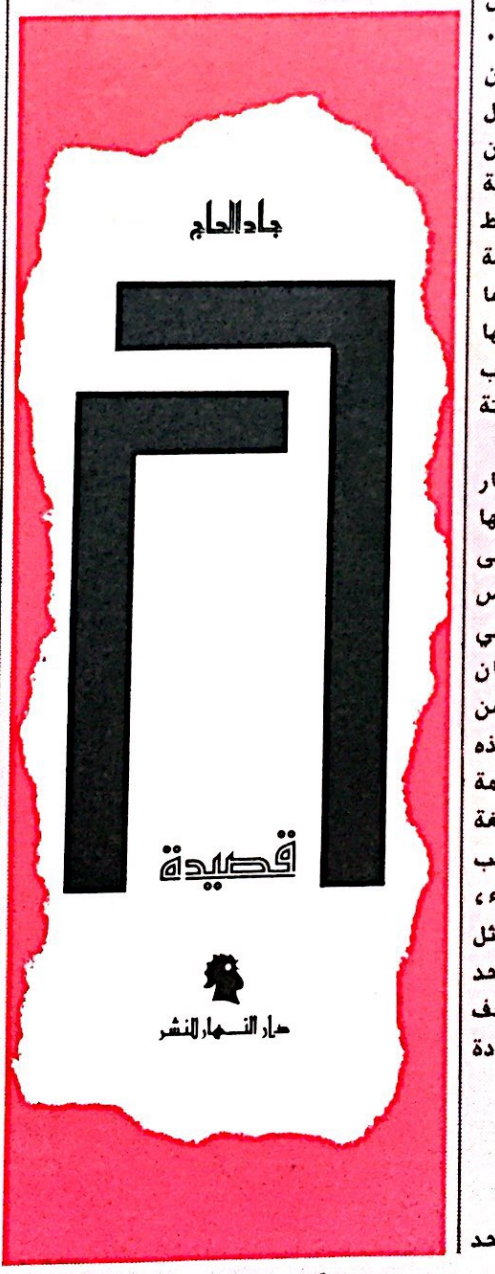

حين يكون الوطن هو الحب والتشرد هو المأساة والشعر هو التجربة، تكون "٢٦ قصيدة"، كتاب جاد الحاج الجديد، هو التعبير عن كل ذلك.

انه الشعر الذي لا اداة غيره يحترفه صانعه لا ليتسلى وانما ليضع نفسه في كلمات هي اشبه بالصورة منها بالحروف المركبة، حتى لتحس ان كتابة حروفها التي تمت على حساب اللغة وتقاليدها هي الكتابة التي لا بد منها حين يكون الشعور اوسع من القوالب ويكون الحب اكبر من الدنيا. وهذا الشاعر غير تقليدي على كل حال. انه شيء من اللامألوف لغة وشعراً وشعوراً. لكن لبنان الذي هو وجع الشاعر هنا كان وما يزال شيئاً من اللامألوف. انه في هذا الشاعر اكثر من وطن له حدوده وله تاريخه. انه حالة نفسية تشبه النرفانا حيث تتساقط الأشياء ويسقط العالم ولا يبقى هناك الا احساس غريب ولغة غريبة ايضاً. لكن جاد الحاج يعيش التذكر مثلما يعيش الخيال وفي ذكراه تعيش طفولة كلها زهور وطيور وقرية تشف منها رائحة الخشب والياسمين وفي دروبها تتأفعن السواقي ساكتة بين اشجار اللوز والسنديان.

لكنها ليست صدفة مثل كتابه الأول "قطار الصدفة" ان يكتب المؤلف هنا شعراً. انها معاناة القصيدة في الحياة قبل ان تتحول الى حبر جاف وتصبح ملك القراء. وجاد الحاج ليس من الذين يدخلون مملكة الشعر من الباب الخلفي وان كان صمته وتواضعه قد منعاه غير مرة من ان يصبح مثل الآخرين الذين يرفعون بيارقهم من المحيط الى الخليج. وهو لو لم تكن له هذه الميزة لما استطاع ان يكتب شعراً ويحول الكلمة الى رفيقة يبادلها الغرام والغزل واحيانا في لغة لا يفهمها غيره. صحيح انه يكتب عن الحب والحرية والوطن والزوجة والطفلة والأصدقاء، لكنه يبقى وحده في عالم من صنع يديه، مثل البدائية في عصر الآلة في موقف يشبه الى حد بعيد موقف دالي من رفيقة عمره غالا، او موقف سارتر وهو يشرح الوجودية من قبره، او ردة غجرية لانسان يولد وحيداً ويموت وحيداً.

"وطني يدعى التشرد
دمي من فصيلة الصفر
وجهي الأخير قناع"

انه اليأس في ادق حالاته ولكن ليس الى حد الموت، حيث الوطن هو الشفيع والعزاء الأخير وحيث الايمان به ايماناً لا يموت.

"ان كان لا بد من رحيل
حين يؤخذ الوطن
نمشي على الماء
لن نغرق ابداً"

وجاد الحاج يبدو احيانا مثل الأنبياء الخائفين على تعاليمهم من السقوط،

"أخاف
ان تكون الأرض حقاً مستديرة
ابقى في الخرائب المغلقة
لا أرى الذي أنوي الصراخ في وجهه
معلقاً بين الوثبة والغياب
أمسح أحذية الدمى
أبيع المساء للعابرين"

بعض الشعراء لا يمكنك ان تفهمهم الا اذا عاشرتهم. انهم مثل اللغز الذي لا تفك رموزه الكلمات بل المعرفة، ذلك لأن شعرهم هو نفسهم وليس صورة عنها. انه التوحد عند المتصوفين، لذلك سيصعب على من يقرأ "٢٦ قصيدة" ان يفهم الشعر ان لم يفهم صاحبه والعكس يصح ايضاً. ذلك لأن الشاعر هنا يخرج من الدوائر والقوالب التي تحده ولا تطلق له العنان ووحدهم الذين يعرفونه او يعيشون حياة مثل حياته قادرون ان يفهموه.

ولكن للزمن ايضاً حكمه.

الم يعش ابن الرومي كطائر غرد في غير سربه حتى جاء هذا العصر فكفؤ عن صبره احسن مكافأة ودرس فيه مثلما درس في غيره من الشعراء الكبار الذين ينسب اليهم اصدق الشعر وأجمله. وكاتب مثل شوبنهور الف كتاباً لم يعره الناس اهتماماً في زمنه، حتى جاء عصر ينفض عنه الغبار ويضعه في موضعه المناسب في مكتبة الأجيال.

ومثل لحن "الفصول الأربعة" لفنان البندقية، قد تصبح "٢٦ قصيدة" في يوم من الأيام لحناً قديماً ولكنه حي في العصر الذي سيفهم فيه ويعطيه قدره ليصير كتاباً لشاعر عاش في زمن رديء، ولكنه مثل ابن الرومي، كتب أصدق الشعر وأجمله ودخل مملكة الشعر ولو بعد مئات السنين.

ر. ق

Scanned by CamScanner